

على هامشه « أمموم شهرزاد »

٢ - قضية اليوم

للأستاذ دريني خشبة

قالت فانتة : « أكتب يا صاحبي ... أكتب ... أكتب ولا تظن أن الذي تكتب سيفض صاحب شهرزاد أو المعجبين بصاحب شهرزاد وما أظنك إلا كنت واحداً منهم ، إن لم تكن ما تزال واحداً منهم ... ثقي يا صاحبي أن مبدع شهرزاد لا يخرج منه ما أبدع لأنه أخذ على نفسه عهداً بأن يُنفذ فيها أحكام الزمان ، قاضيه في « القصر المسحور » . وهل نسي القراء بعد ذلك الحكم الذي أصدره الزمان - القاضي العادل - على مبدع شهرزاد ، في الفصل الأخير من القصر المسحور ؟ إن كانوا قد نسوا هذا الحكم فكتبه هنا لهم عساه أن يفهمهم فيما نحن بسبيله اليوم من أمر تلك القضية التي أحدث ضجة الخراسون وأرجف بها المرجفون ...

حكم الزمان : « والآن وقد سمعنا ادعاء المدعين ودفاع التهم الأول ، ولأحظنا اعتزال من اعتزل وعدول من عدل عن الاتهام ، نقرر أن من حق الأديب أن ينشئ أشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون هم ، بل إن من الحق على الأديب أن يخلق أشخاصه كما يؤدهم إليه فنه ، لا بغير من صورهم التي تلاءم عليها ولا يبدل ، ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد إليه سبيلاً . ولن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها ، وأن يعيب عليه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه ، وما يبنى لهذه الأشخاص نفسها أن تنور بمنشئها أو تمكر به أو تكيد له أو تتألب عليه ، أو تنبئ له سوءاً أو تستنزل عليه عقاباً ؟ فإن قلت فهي طاغية يجب أن ترد عن طغيانها ، وباغية يجب أن تصد عن بغياها ، وجائعة يجب أن يكبح جماحها ، ومنشئها وحده هو القادر على ذلك . وسبيله إليه ترقية فنه وتجديده واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً . ولا كان التهم نفسه قد أعلن تواضعه واعترف بقصوره وسلم بأنه في حاجة إلى أن يسمى وبطيل السى ، وإلى أن يجد ويعمن في الجد ، لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه .

ولما كنا نقدر التهم تواضعه وطموحه إلى الكمال ، واعترافه ببعده الأمد أمامه ؛ ولما كنا نحصر على أن تمنحه المعونة على ما يريد من الرق الفني فقد قضينا أولاً بإسقاط دعوى المدعين ، وتبرئة التهم مما وجه إليه . ثانياً ... بنفيه عن سالتش الخ ... » وحسب القراء يا صاحبي هذا القدر من حكم الزمان الذي ارتضاه صاحب « شهرزاد » ورضي أن ينشر في قصة (القصر المسحور) التي اشترك في إبداعها مع صاحب « أحلام شهرزاد » وليس القراء في حاجة إلى أن نذكرهم بأن هذا الحكم الذي أصدره الزمان القاضي العادل ، هو حكم أملاه على الزمان صاحب « أحلام شهرزاد » وكان حريصاً فيه على أن يرسم لشريكه السبيل إلى (ترقية فنه وتجديده واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً) ، وكان جليلاً من صاحب « أحلام شهرزاد » أن يسجل على شريكه : (تواضعه واعترافه بقصوره وتسليمه بأنه في حاجة إلى أن يسمى وبطيل السى ، وإلى أن يجد ويعمن في الجد ... لا ليبلغ الكمال ... بل ... ليدنو منه) وأن يقدر له تواضعه وطموحه إلى الكمال ، واعترافه ببعده الأمد أمامه .

وحرصه على أن يمنحه (المعونة على ما يريد من الرق الفني) فهل تخشى بعد ذلك يا صاحبي أن يغضب صاحب شهرزاد إذا كتبت في قضية « أحلام شهرزاد » كلمة ترددها الحق إلى نصايه ؟ وماذا يغضب صاحب شهرزاد كما يجرح الخراسون ويرجف بالباطل المرجفون ، وقد اشترك في نشر هذا الحكم الذي ذاع من أبراج القصر المسحور ولم يشترك في نشره إلا بعد أن قبله ورضي ما جاء به ، ولم يعقب عليه بكلمة ؟ الحق أن صاحب شهرزاد أعظم من أن توغر صدره الكرم نقثات البطولين المصدورين ... بل واجبه أن يصفع بالحقائق التي وردت في ذلك الحكم أفتيتهم ؛ لأنه عرفها قبل أن يعرفها أحد قبله ، وأذعن لها قبل أن تذيع في الناس وبعد فقد كان هذا الحكم تعقيباً على قصته - أو مسرحيته الرومانيسكية - شهرزاد ، فهل كان فن هذه المسرحية ناقصاً ؟ وهل كان في حاجة إلى التجديد واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً ؟ وهل نحن الذين يطلب إليهم أن يجيئوا على ذلك ؟ وكيف وقد اعترف صاحب شهرزاد بقصوره وسلم بأنه في حاجة إلى أن يسمى وبطيل السى ، وإلى أن يجد ويعمن في الجد ... لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه ... إلى آخر ما جاء في عقابيل هذا الحكم من ألقاظ للتواضع وبعد الأمد وحاجته إلى

معونة ثابتة من الخارج على ما يريد من الرق الفنى ... الخ .

هل نجيب أو لا نجيب ؟ وهل يقف ما اعترف به صاحب شهرزاد بيننا وبين ما تريد أن نقول ؟ وهل من حقنا أن نقول شيئاً بعد هذا ؟ وهل نستطيع أن نخالف عن أمر الزمان وأن نشور بأحكامه ؟

أجل ، نحن نستطيع أن نفعل ذلك ، فقد جاء في هذا الحكم الإذن (لمن شاء أن ينكر عليه) على الأديب (أو على فنه هذه السورة كلها أو بعضها ، وأن يميم عليه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه) ... وعلى هذا فلنا أن نتناول نقد شهرزاد بما نشاء من كل ضروب النقد ، ضامنين ألا بغضب مبدعها كما يحاول المرجفون المبطلون أن يجعلوه على الغضب ، بما يوهونه من السطو على بضائعه ، وادعاء ما هو حق خالص له ولكن ... هل كان فن « شهرزاد » ناقصاً ؟ وهل كان

في حاجة إلى التجديد واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً ؟ وكيف اعترف صاحب شهرزاد بذلك ، واعترف معه بقصوره وبأنه في حاجة إلى أن يسى ويظيل السى ، وإلى أن يجد ويظيل الجد ... لا ليبلغ الكمال ... بل ... ليدنو منه ؟! أما نحن فنخالف صاحبي « القصر المسحور » في كثير من ذلك ، ونوافقهما في بعضه ... إذ نشهد أن « شهرزاد » قطعة فنية رائعة من حيث الفن الأدبي الخالص لوجه الفن ، لا لوجه الحياة ... ومن حيث أنها تصور مذهباً في الأدب يأخذ به كاتبها نفسه ، ويتحمس له ، ولا يرى أن يحيد عنه ... أليس قد اشترك مع عميد الأدب العربي في « القصر المسحور » فأبى إلا أن تكون له شخصيته المستقلة البارزة إلى جانب شخصية العميد التي تختلف بأسلوبها وتفرّد بسردها وتتخذ إلى قلوب القراء طرائقها المألوفة المعروفة ... وعندنا أن شهرزاد من حيث الفن ليست في حاجة إلى ترقية ولا إلى تجديد .، فقد بلغت من ذلك الكمال . وهذا حق لا ريب فيه . أما الذي نشور من أجله على « شهرزاد » وعلى مذهب صاحبها كله في الأدب ، فهو هذا التحقير الشنيع للمرأة ، واعتبارها متاعاً رخيصاً لا يصح أن يناط به الشرف ، أو اعتقاد الحفاظ فيه ، أو نسبة العفاف إليه . ثم هذه الجحاسة التي يبيدها صاحب هذا المذهب في التمسك برأيه والفخر من أجله بأنه « عدو المرأة »

ومن القول المعاد أن تلخص للقراء فكرة العبقري الأول الذي ابتدع فكرة قصص « ألف ليلة وليلة » والذي ابتدع من

أجلها شخصية شهرزاد الرائعة ، تلك الفتاة النابغة التي استطاعت أن تنقذ جذوة الحقد على النساء في نفس شهریار ، وأن تنسيه مأساة زوجته التي أزهق بسبب خيانتها أرواح هذه الجهرة من فتيات مملكتها ، والتي استطاعت مع ذلك أن تكسب حب هذا الملك المنقبض النفس ، المكظوم الفؤاد ، وأن تبادله ذلك الحب ، وأن تجزيه عليه أوفاء والصفاء والإخلاص ، كما استطاعت أن ترد عليه ثقته بالمرأة التي كرهها ، ومحبت لها بعد البرم بها ، واقتنانه بحديثها بعد انصرافه عن كل كلفة تنبس بها ، فيكون له منها أبناء بررة ، وأسرة مجموعة الشمل ، فتتغير حاله خضوعاً لقانون الظروف ، ونزولاً على مقتضيات الأحوال الجديدة ...

هذه هي شهرزاد البسيطة غير المعقدة . هذه هي المرأة التي تعتبر ، ويجب أن تعتبر ، محور الحياة ومناط الفضيلة ، ورحمة الله التي تذهب الأحزان ، وابتسامة السماء التي تشرق في القلوب المكروية فتتمرها بالسعادة وتقعها بالرضى ... المرأة التي تروض الطباع الجافية فتجعلها رخاء ، وتحتال للفرار الوحشية فتحيلها إلى اللين واليسر والصفاء أما شهرزاد الأخرى ... تلك الهولة التي رمز بها صاحبها إلى المرأة في كل زمان ومكان ... فهي لا تمثل إلا نفسها ... إنها تمثل حليماً مريضاً يملأ خيالاته مريضاً ... لقد تصورنا صاحبها امرأة احتالت على الملك - على شهریار - بقصصها البارعة لتنفذ نفسها قبل أن تنفذ جنسها (ص ٤٠) كما صرحت بذلك للوزير وهي تحاوره وتداوره - هذه هي شهرزاد الأنانية الأثرة التي لا يصح أن تمثل إلا نفسها - أما شهرزاد التي تشعني العميد السود في المنظر الخامس ، ولا تريد أن تشبع منهم ، وتحون الملك من أجلهم ، فممن من بنات حواء تمثل ؟ ممن من جمهور بنات الإنسانية وأخواتها وأمهاتها تمثل هذه المرأة الساقطة المهلوك ؟ هل تمثل إلا نفسها تلك المرأة التي تنازل الوزير في المنظر الثاني ، ويستطيع حبها الدنس أن يعصف بنفسه - وهو الوزير المخلص - في المنظر السادس ، وتكون نتيجة هذا الحب أن يقتل الوزير نفسه في المنظر الأخير حينما يكتشف أن شهرزاد لم تكن تنشأ وحده ، بل كانت تعبد (جسم) العبد أكثر مما كانت تعبد جسمه (ص ١٣٨) ما هذا ؟ ما تلك الصورة الشاحبة التي ينجبها صاحب شهرزاد للمرأة في غميلة ؟ لقد مسخ الصورة الساذجة غير المعقدة ، الصورة العلوية الفردوسية التي ابتدعها الرجل العبقري الأول الذي ابتكر فكرة ألف ليلة وليلة فجعلها صورة شائبة قبيحة فاجرة لا يمكن أن تمثل

ولا تؤاخذني يا عزيزي المبقرى الأول فهذا رأيي في المرأة ... وجعلتها أنانية أثرة لا تجهد إلا أن تبقى على نفسها وإن هلك نساء العالم . ثم جعلتها تخدع الملك وتصر على الانتقام منه فتخونه كاسفل ما خائنه زوجته الملكة الأولى ، وتؤوى إلى فراشه المبيد الأقوياء السود فلا تشيع منهم ، وتحرص على أن يكونوا سوداً غلاظاً (فالزهرة البيضاء الرقيقة تنبت من الطين الأسود الغليظ) ، وتحرص أن يكون عبيدها (وضع الأصل قبيح الصورة ، لأن هذه هي صفات الشهوة !) قالت له : « اقرب » فإذا أنبأها العبد أن (تلك هي صفات الشهوة !) قالت له : « اقرب » فإذا قال العبد : « ينخيل إلى أنك امرأة لا ككل النساء . أنت لا يمكن أن تمسقي أحداً » قالت له « لا شأن لك بقلبي ! » فإذا قال : « أنت إنما تعلمين بي . إني أخافك » قالت : « أنت واهم » فيقول ، ويا مصيبة ما يقول : « وزوجك ! » فتقول : « ما شأنك به ؟ » فهل رأيت إلى يا عزيزي المبقرى الأول كيف أشعت الفجور في نفس شهرزادك ! وإن غضبت . فشهرزادى ! وماذا بفضبك وللأدب أن يضع أشخاصه في الصورة التي يحب كما جاء في حكم الزمان في آخر قصة القصر المسحور ؟ لقد أشعت الفجور في نفس شهرزاد وفي نفس العبد وفي نفس قمر وفي نفس الجلاد وفي نفس أبي ميسور ، وفي نفس الملك . إى والله في نفس شهرزاد الذى ما فتئ يقتل النساء . لقد جردته حتى من نحوه الرجولة وفحولتها وجعلتها ضعفاً وخناً وفسولة . لأنه يرى العبد يخرج من مخبئه في خدعها ، فلا يبرم ولا يثور ولا يأمر جلاده بشئ ... ولا بالبصق في وجهه . ولماذا يفعل وقد اشتد إيمانه بأن هذه هي طبيعة المرأة التى لا سبيل إلى تقويم معوجها ؟

أرأيت إلى يا عزيزي المبقرى الأول ؟ هذا مذهبي في المرأة ... روأت له هذا التروى ، وموتت به على قرأى ذاك التروى ، وأذعته عليهم في كتاب وجد من حرية الرأى ورحابة الصدر ، وحسن الالتفات ، في مصر والشرق ، ما وجد ، فشاغ وذاع وملأ النفوس والأسماع ... وغلب القنص - الذى ورد ذكره في كتابي - على صفاته الفوالى ، وضراياه الكبار قالت فانتة : « وحسبك هذا القدر اليوم يا صاحبي ، وقبل أن أذن لك فتضع هنا اسمك ، نبه الذاس إلى أن صاحب أحلام شهرزاد لم يسرق من هذا الفجور شيئاً ، بل هو قد عالج الملاج الذى كان ينبغى له منذ أعوام . وإلى اللقاء في الأسبوع المقبل » - ومنه خمسة

مرأة المواخير التى تنجر بمرضها كما تنجر بأعراض الناس . يريد أن يقول المبتدع الأخير للمبقرى الأول : إنك يا صاحبي رجل سليم النية طيب القلب ساذج التفكير ، تنظر للمرأة تلك النظرة العالمية للمرأة فتفهمها بالذكاء الصالح ، وتنق عنها الدهاء الطالح ، حين تضع بين يديها شخصية مستوحشة مثل شخصية شهرزاد الذى قتل زوجه الملكة وقتل العبد الذى خائنه فيه ، ثم راح يقتل العذارى تقمة منه على جنس المرأة حتى رزقه الله هذه الفتاة الألمية « شهرزاد » التى تسلمته كما يتسلم الروضون السباع والضواري فإزالون بها حتى يسلس لهم قيادها وينقاد لهم عاصيها ، وتخضع كما تخضع الثعابين في الهند للموسيقا وتسكن سكون الطفل إذ يلتقم ثدى أمه ... أما أنا - لاجملت فداك - فملى النقيض منك ، إذ أنى قليل الإيمان - بل لا إيمان لى على الإطلاق - بالمرأة ... المرأة التى تمثلها شهرزاد في كل زمان ومكان ... إني عدوها !! ... إنها مخلوق أنانى صلف غادر ... إنها كائن غوى بنى فاجر ... إنها أصل كل بلاء ، وجالبة كل شقاء ... إنها كما جاء في هذا البيت المضحك الذى دسه عليك بعض القصاص المتأخرين فيما دسوه عليك من سخف ... هذا البيت الواهى التهاك الذى لا يستقيم له وزن :^(١)

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت

فانظر تجدها من النساء تأت !! بالضبط يا عزيزي المبقرى الأول ، ولو أنك أنت كنت رويت هذا البيت ، وثقفته لراقت أن يكون مذهبك في المرأة كما أصبح مذهبي ، ولدنت به كما أدين أنا - في آخر الزمان - به فقد تناولت شهرزاد الحسيفة العفيفة الظريفة اللطيفة التى قتلت الشيطان بين جنبي شهرزاد ، وأبادت الظلام الذى جثم على قلبه ، وأعادت إلى روحه السلام والطأنينة ، وغيرت مجرى تفكيره في الحياة حين أنجبت له أبناء وخلقت له « بيتاً » ، شهرزاد التى لم تزل بالملك المتبرم بكل شئ ، التاقم على كل الوجود ، حتى على نفسه فردته إلى الرضى ، وغسلت قلبه بالكليج والبرد ، واشتركت وإياه في شئون الملك ، فاستقامت له الرعية ، وازدهرت في فيض عدالته الدولة ... تناولت أنا شهرزادك هذه فسختها ...

(١) ما بيتان لا بيت واحد نظمه هكذا :

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت
فانظر إليها تجدها من النساء تأت
(الرسالة)